ومضات

صديقي رمضان ...

للأستاذ علي الطنطاوي

صديق عزيز ، لقيته وأنا طفل في دمشق ، ثم افتقدته وأنا شاب أذرع الأرض وأضرب في بلاد الله ، ففرحت بلقائه وأحببته ، وألمت لفقده وازداد حنيني إليه ، فأين أنت يا صديقي رمضان ؟

كنت أرقب قدومه ، وأحسب له الأيام والليالي على مقدار ما يحسن طفل من الحساب ، فإذا جاء فرحت به وضحكت له روحي لأني كنت أرى الدنيا تضحك له وتفرح بقدومه

كنت أبصره في المدرسة ، فالمدرسة في رمضان مسجد ، ودرسها تلاوة وذكر ، وأهلوها أحبة ، ما فيهم مدرّس يقسو على طلاب ، وطلاب يكرهون المدرس ، لأن رمضان وصل النفوس بالله فأشرق عليها من لدنه النور فذاقت حلاوة الإيمان ، ومن ذاق حلاوة الإيمان ، لم يعرف البغض ولا الشرّ ولا العُدوان

كنت أراه في الأسواق ، فالأسواق تعرض بضاعة رمضان وتفيض عليها روح رمضان فتمحو الغش من نفوس أهلها محواً ويملؤها خوف الله ورجاؤه ، وتقف ألسنتهم عن الكذب لأنها جرت بذكر الله واستغفاره ، وهانت عليهم الدنيا حين أرادوا الله والدار الآخرة ، فغدا الناس آمنين أن يغشهم تاجر ، أو يخدعهم في مال أو متاع ، ويمضي النهار كله على ذلك ، فإذا كان الأصيل ودنا الغروب تجلى رمضان على الأسواق بوجهه فهشت له وجوه الناس ، وهتفت باسمه ألسن الباعة ، فلا تسمع إلا أمثال قولهم : « الصايم في البيت بركة » - « الله وليك يا صايم » — « الله وليك ومحمد نبيك » ثم لا ترى إلا مسرعاً إلى داره حاملاً طبق « الفول المدمس » أو « المسبحة » أو سلال الفاكهة أو قطع « الجرادق[1] » ، ثم لا تبصر إلا مراقباً المنارة في دمشق ذات الثمانين منارة ، أو منتظراً المدفع ، فإذا سمع صيحة المؤذن أو طلقة المدفع دخل داره ، والأطفال يجتمعون في كل رحبة في دمشق ليسمعوها فيصيحوا : أذن ... أذن ... أذن ... ثم يطيروا إلى منازلهم كالظباء النافرة .

وكنت أبصر رمضان يؤلف بين القلوب المتباينة ، ويجلو الأخوة الإسلامية رابطة المسلم أخي المسلم فتبدو في أكمل صورها نيتقابل الناس عند الغروب تقابل الأصدقاء على غير معرفة متقدمة فيتساءلون ويتحدثون ثم يتبادلون التمر والزبيب ويقدمون الفطور لمن أدركه المغرب على الطريق فلم يجد ما يفطر عليه ، تمرة أو حبة من زبيب ، هينة في ذاتها ، تافهة في ثمنها ، ولكنها تنشئ صداقة وتدل على عاطفة ، وتشير إلى معنى كبير

وكنت أنظر إلى رمضان وقد سكّن الدنيا ساعة الإفطار ، وأراح أهلها من التكالب على الدنيا والازدحام على الشهوات ، وضم الرجل إلى أهله ، وجمع الأسرة على أحلى مائدة وأجمل مجلس وأنفع مدرسة . فوا شوقاه إلى موائد رمضان وأنا الغريب الوحيد في مطعم لا أجد فيه صائماً ولا أسمع فيه أذاناً ولا أرى فيه ظلاً لرمضان ...

فإذا انتهت ساعة الإفطار ، بدأ رمضان يظهر في جلاله وجماله وعظمته المهولة في المسجد الأموي أجل مساجد الأرض اليوم وأجلها وأعظمها ، وكنت أذهب إلى المسجد بعد المغرب وأنا طفل فأراه عامراً بالناس ممتلئاً بحلق العلم كما كان عامراً بهم ممتلئاً بها النهار بطوله ، فأجول فيه مع صديقي سعيد الأفغاني خلال الحلقات نستمع ما يقول المدرسون والوعاظ ، وأشهد تربّاته وأضواءه وجماعاته ، ومن صنع الله لهذا المسجد أن صلاة الجماعة لا تنقطع فيه خمس دقائق من الظهر إلى العشاء الآخرة في أيام السنة كلها وقد بقي ذلك إلى اليوم على ضعف الدين في النفوس وفساد الزمان .. وإن أنس لا أنس تلك الثريا الضخمة ولم يكن قد مدّ إليها الكهرباء ، فكانت توقد مصابيحها وهي أكثر من ألف بالزيت واحداً بعد واحد يشعلها الحسكيون[1] وهم بطيفون بها

(١) أطباق جافة رقيقة وكبيرة تصنع من مواد خاصة يرش عليها الدبس ، ولا تصنع إلا في رمضان

(١) الحسكي خادم الاموي ، كلمة شامية ولعل أصلها من الحسكة ، ومعناها بلغة المغرب الشمعدان

على سلاليم قصيرة من الخشب فيكون لذلك المشهد أثر فى النفس واضح ، ثم يكون العشاء وتقوم من بعده التراويح ولها فى الأموى منظر ما رأيت أجلّ منه ولا أعظم إلا صلاة المغرب حول الكعبة فى مسجد الله الحرام فإن ذلك يفوق الوصف ، ولا يعرف قدره إلا بالعيان . وليس يقلّ من يصلى التراويح فى الأموى عن خمسة آلاف أصلاً ، وقد يبلغون فى الليالى الأواخر الخمسة عشر والعشرين ألفاً ، وهو عدد يكاد يشكّ فيه من لم يكن عارفاً بحقيقته ولكنه الواقع ، يعرف ذلك الدماشقة ومن رأى الأموى من غيرهم . وحدّث عن الليالى الأواخر (فى دمشق) ولا حرج ، وبالغ ولا تخش كذباً ، فإن الحقيقة توشك أن تسبقك مبالغة ، تلك هى ليالى الوداع يجلس فيها الناس صفوفاً حول السدّة بعد التراويح ، ويقوم المؤذنون والمنشدون فينشدون الأشعار فى وداع رمضان بأشجى نغمة وأحزنها ثم يردّد الناس كلهم : ياشهرنا ودعتنا عليك السلام ! يا شهرنا هذا عليك السلام ويتزلزل المسجد من البكاء حزناً على رمضان

* * *

وسَحَر رمضان ! إنه السِّحر الحلال . إنه جنة النفس ونعيمها فى هذه الدنيا ، وإنى لأقنع من جنات الفردوس أن تكون مثل سَحر رمضان ، فأين ذهب رمضان ؟ وأنّى لى بأن تعود أيامى التى وصفت لأعود إليه ؟

ذمّ المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأيام

إنى لا أشتهى شيئاً إلا أن أعود طفلاً صغيراً لأستمتع بجوّ المسجد فى رمضان وأنشق هواءه وأتذوق نعيمه . لم أعد أجد هذا النعيم ، وما تغيّرت أنا أفتغيرت الدنيا ؟

إنى لأتلفت أفتش فى غربتى عن رمضان فلا ألقاه لا فى المسجد ولا فى السوق ولا فى المدرسة ، فهل مات رمضان ؟

إذن فإنا لله وإنا إليه راجعون

لقد فقدت أُنس قلبى يوم فقدت أمّى ، وأضعت راحة روحى يوم افتقدت رمضان ، فعلى قلبى وأمى ورمضان وروحى رحمة الله وسلامه !

دكركوك

على الطنطاوى

هل يقرأ القناء هذا

الذئب والحمار

رواية فى منظر واحد

للأستاذ عبد اللطيف النشار

[يزعم هذا أنه يريد إنقاذ الانسانية من شوك الديمقراطية]

الحمار (يدخل المسرح خائفا وحده) :

أقبل الذئب ومالى بكفاح الذئب حيله
ربّ ألهمنى برأى فحياتى مستحيله
أدّعى أنى مريض علنى أنجو بحيله

(يتخارج ... ويدخل الذئب)

الذئب :

لِمَ تمشى مشية الأعـــرج يا أوفى حبيب
كيف تشكو أى داء وأنا خـير طبيب
أرنى رجلك أشفـــيك من الجرح الرغيب

(يتقدم ليرى رجل الحمار)

الحمار :

لك شكرى وثنائى وجزاك الله عنى
قد أصاب الشوك رجلى فانزع الشوك ترحنى
وإذا لم أستطع قتلك يا ذئب فكلنى

(يركله بقدمه الخفية)

الذئب (وهو يتلوى من الألم ويجود بنفسه) :

هكذا أقضى حياتى هكذا عقبى الغرور
أنا قصاب فمالى أدّعى طب الحمير
ليس فى الكذب على الـ ـخلق سوى الشر الكثير

(يموت)

الحمار :

أحمد الله على الـ ـعقل ففى عقلى نجاتى
أحمد الله فلولا حيلتى ضاعت حياتى
كتب الله لىَ العمْـــرَ بصبرى وثباتى

عبد اللطيف النشا